الحس الديني في أعمال نجيب محفوظ

باسمة عجان بوطراد

كلية اللغات ليون 3

إذا كان نجيب محفوظ يأخذ على بعض المدارس الدينية كالصوفية سلبيتها وانعزالها عن الحياة، فإنه، طعم أعماله بمفردات ومفاهيم وعوالم إيمانية وصوفية وروحانية "كالعارف بالله" و" مقام الحيرة" التي نجدها خاصة عند ابن عربي، في إشارة دائمة إلى حس ديني عميق لدى مختلف شخصياته. لذلك لا يمكننا اتخاذ مواقف تبسيطية من تجربة محفوظ بالحكم عليها من خلال تصورات جاهزة كما فعل البعض.

يشكل موضوع الحس الديني في عالم محفوظ الروائي أبعادا عميقة وهامة إن بدت في بعض الأحيان ثائرة على الأديان وعلى قوة تأثيرها في حياة الإنسان، فهي لا تفتأ تذكر بحتمية هذا الحس الديني وفطرته وجوهره عند الإنسان عبر العصور، وتكاد تختل الموازين حين يتم تجاهلها.

في واقع الأمر، لا تفتأ أعمال نجيب محفوظ بسحرها وبالحكمة التي تستدعي استنباطها من بين السطور وبنظرتها الحية للعالم، تدعو القارئ للتساؤل عن خباياها، ولاسيما ما يتعلق بالحس الديني الذي يظهر أحيانا بوضوح، وأحيانا كثيرة يستدعي التحليل والاستنباط. فقد تميز محفوظ أكثر من غيره بهذا الأسلوب في معالجة النوع الإنساني في مختلف مواقفه ونزعاته ولاسيما الدينية منها.

إن كتابات محفوظ بأسرارها ولفتاتها الغامضة والمحيرة تستحق دراسة جديدة محورها هذا الحس الديني الذي لم يأخذ بعد حقه في الدراسات التي أنجزت حول كتابات محفوظ، بل ضرورة القيام بدراسة وفق هذه الرؤية تشمل جميع أعمال الكاتب. فقد لا نوفي هذه الكتابات حقها دون العودة إلى هذا البعد الديني والروحاني العميق ، ليس بهدف تبرئتها من الاتهامات التي ما فتأت توجه إليها، وإنما بهدف تعميق النظر في هذه الزاوية التي لم تنل بعد حظها من التحليل والتأمل.

إن الموضوعات المتصلة ب" الحس الديني " في تجربة محفوظ، تحتفظ بقسط كبير من الغموض، ولذلك فإنها تعكس طابعا جدليا في معالجتها لهذه المواضيع، فهي تعرض لمختلف الوجوه المتناقضة: الجوهر والعرض، والظاهر والباطن، والمرئي والغيبي. وتستنبط هذه الثنائيات من تجارب الشخصيات

وأفكارها وكل ما يتجسد في الطبيعة والواقع و في عمق الأشياء و غور النفس البشرية. ولهذا فإن الانتقال من معنى مرئي إلى آخر باطني هو ميزة أعمال محفوظ. وفي هذا المجال بالذات تكمن عبقرية محفوظ وقدرته على صياغة المجرد من خلال حدود المرئي في السلوك اليومي

وفي خضم هذه الكتابة متعددة الأوجه، يتجلى الحس الديني كقلق روحي كالذي يميز عالم ما بعد الحداثة. وبشكل ما، نستطيع القول إن كل تجديد للفكر الأدبي في هذا المقام قد يبدو مرتبطا بهذه الأعمال التي يمكن بحق اعتبارها مرجعا في اختبار تطور الحس الديني ووجوهه المختلفة، لتكشف عن عاطفة دينية متأصلة وملحة تسبق كل اعتقاد إيماني عند الإنسان على اختلاف واقعه ومحيطه، وهذا ما يظهر جليا في التساؤلات التي تطرحها شخصيات محفوظ المختلفة و التي تدور حول الدين و الله.

وهكذا، فان كتابات محفوظ تلغي أي فصل بين الدين والأدب، بل تشهد أن تلازم الموضوع الديني والإبداع الأدبي ينتج جمالية أدبية متميزة تقود إلى إعادة سبر أغوار البعد الديني للأدب.

فالحس الديني يتسلل إلى عالم نجيب محفوظ في شكل عنصر فني وجمالي ومعنوي وأخلاقي ويعبر بصدق عن التجربة الروحية عند الإنسان بشكل عام، وحنينه الدائم لجنة الخلد. كما يدعو إلى نوع من المصالحة بين الإنسان وعالمه المثقل بالمتاعب. وبعيدا عن صراعات النظريات والعقائد وتباين المواقف الإنسانية تجاه الله والدين، يظل هناك، داخل الإنسان، حس ديني فطري يدفع إلى البحث والتساؤل عن حقيقته وجوهره، يظهر هذا جليا لدى معظم شخصيات محفوظ. وهذا ما يدعونا إلى القول إن مثل هذه التساؤلات والمشكلات في عصرنا، عبرت عنها بعمق قصص محفوظ ورواياته.

من هذا المنطلق، يبدو الحس الديني في أعمال محفوظ متجسدا في معظم هذه الأعمال انطلاقا من هيمنته من خلال دلالات تشمل ثوابت و متكررات نستخلص منها ثلاثة محاور:

أولا واقع معيش معبأ بالتفاصيل الدينية، سواء تلك التي تعكس إيمانا راسخا أو حيرة دينية تشغل الشخصيات وتنم في جميع الحالات عن فطرة دينية غامضة ولكنها دائمة الحضور كما في الثلاثية مثلا.

إلا أن الحس الديني في عالم محفوظ لا يتوقف عند هذه المعطيات فثمة محور ثان في كتاباته يكشف عن وجوه متنوعة و مختلفة للحس الديني عند شخصياته، في تصرفاتها وتساؤلاتها و بحثها عن حقيقة الوجود و الله و الإنسان،و ذلك من خلال تجارب تعيشها تارة على المستوى الوجودي والديني، و تارة أخرى على مستوى يتعدى الواقعية إلى نوع من" العجيب" حيث تعالج الأبعاد الدينية و الميتافيزيقية بين الواقع و الخيال كما هو الأمر في ليالي ألف ليلة على سبيل المثال لا الحصر.

ونحن لا يسعنا تصنيف كتابات محفوظ على هذا الأساس، لأننا نلمس هذا البعد حتى في القصص التي تعرف بالواقعية، ولا يمكننا أمام مختلف الكتابات و الروايات و المواقف المتنوعة للشخصيات و محيطها إلا التنقل سريعا ودائما بين مختلف المستويات الاجتماعية والواقعية لهذه التجارب إلى المستوى الميتافيزيقي الممزوج بالخيال و العجب و العكس صحيح.

وضمن نفس المحور الثاني نستطيع استنباط للحس الديني في أعمال محفوظ من خلال تفاصيل المكان و الزمان اللذين غالبا ما نراهما في عالم محفوظ متأثرين بتجارب ورؤى الشخصيات في أبعادها الواقعية تارة، واللامعقولة تارة أخرى، التي و إن بدت عجيبة وخيالية إلا أنها لا تفتأ كما هو الحال في واقعيتها، تنطق ببعد روحاني و حس ديني مهما تغايرت الأزمنة و الأمكنة. بل نذهب إلى القول إن هذا ما قد يفسر لنا في كثير من الأحيان جنوح الشخصيات إلى السقوط في هاوية الظلمات وأحيانا أخرى إلى التعلق بأنوار الإيمان وإن خفتت، وهذا ما يفسر لنا أيضا الوجوه المتناقضة والقلقة لهذه التجارب التي تنشأ من رغبة دفينة في التغلب على الغموض الغيبي والقلق الوجودي عبر ديالكتيكية تحاول جاهدة أن تستفسر عن المعاني الميتافيزيقية الدفينة للأشياء، إلا أنها لا تستطيع سوى ترك حيرة وصراع لا نهائيين بين ما يعجز المنطق البشري عن تفسيره من غور الأمور، وما يجب أن يدعه لخالق البشر وغيبه، و يكتفي باللجوء إلى ما يستطيع قلبه أن يستشفه ويحدثه به.

إلا أن تميز إشكالية طرح موضوع الحس الديني في أعمال محفوظ لا يقف فقط عند دلالات واقع القصص وتجارب مختلف الشخصيات الوجودية والدينية، اللامعقولة منها والواقعية. كما أنه لا يتوقف عند جمالية إبداع محفوظ الأدبي ولاسيما في طريقة توظيفه للتراث الأدبي والديني خاصة للإنسانية وللكتب السماوية، التي تكشف عن مدى تأثره بهذا التراث، ومدى تميز حسه الإبداعي به، وإنما يتعدى ذلك لينم عبر محور ثالث للحس الديني في أعماله عن علاقة شغف قوية جدا وغامضة بين مفهوم الأدب والحس الديني بشكل عام، وكأن هذا الأخير هو المحرك الأول لكل إبداعه الأدبي.

إذا كانت القراءة السريعة لأعمال محفوظ تكشف عن شخصيات تعيش في وسط تسوده تقاليد معينة وانتماءات محددة غالبا ما تمتزج فيها الواجبات الوطنية والاجتماعية مع الواجبات الدينية، كما هو الأمر في الروايات الفرعونية أو حتى في الثلاثية، فإننا نستطيع بكثير من التعمق في قراءة مثل هذه الروايات، ومختلف كتابات محفوظ، أن نستشف الحس الديني ممثلا في بعده الإنساني البحت كما هو الأمر في العائش في الحقيقة من خلال تجربة اخناتون، وكذلك في تساؤلات ناجي مرقص و آرائه في الروحانية في المرايا (1) وفي حكمة الفرعون في رادوبيس (2) على سبيل المثال لا الحصر.

و إذا كانت التفاصيل الكثيرة والدقيقة التي تضفي طابعا دينيا ومقدسا و روحانيا على كثير من حياة ومحيط الشخصيات، فإن الحس الديني يبدو حاضرا دائما وبعيدا حتى عن هذه المعطيات، عاريا تماما عن أي انتماء لنظرية أو دين أو معتقد، كجزء من هوية الإنسان نفسه. فحسين مثلا في بداية ونهاية يتمتع بإيمان عميق بينما يبدو حسنين في الرواية نفسها مستسلما لإيمان وراثي، وفي كلتا الحالتين يكون الإيمان الديني جزءا هاما من شخصيتيهما بالرغم من تساؤلاتهما في أوقات الشدة كما هو الأمر حين وفاة الأب (3). يبدو الإيمان إذن عنصرا أساسيا كما يقول مصطفى الدهشوري في القصة الثالثة والسبعين من حكايات حارتنا عندما يعلن أنه لا مناص من الإيمان بالله ولا محيد عنه (4).

وهكذا تصادفنا الكثير من الشخصيات التي تعرف حيوات مختلفة ومراحل مضطربة إلا أنها سرعان ما ينتهي بها المطاف إلى التسليم بحقيقة الإيمان، برغم الحيرة الدائمة أمام العجز عن فهم كامل وعميق لحقيقة الإيمان والإنسان والله و الحياة البشرية. ويبقى هذا الإيمان أو "مقام الحيرة" هذا شاهدا ودليلا لا على الشك الإيماني، بل على حيرة المؤمنين "العارفين بالله" الذين يزدادون تحيرا كلما ازدادوا إيمانا وتدبرا في خلق الله، سواء كان هذا الإيمان عقديا أو لا. وها هو المعلم نونو وبلهجته الساخرة الثائرة، وعلى الرغم من تجاوزاته المتعددة لا يفتأ يرضخ برضا كامل لهذا الإيمان والقناعة والاستسلام لله (5).

نجد هذا الخضوع لله عند معظم شخصيات محفوظ وفي مراحل وأوقات مختلفة من حياتهم، يزيد وينقص ويتعرض للتساؤلات والأزمات إلا أنه لا يختفي أبدا. قد يبدو واضحا ومستقرا في دعوات أمينة وتدين رضوان الحسيني كما في صلوات اخناتون "العائش في الحقيقة" وعند الباحث عن زعبلاوي المقتنع تماما بضرورة بحثه هذا(6) كما يظهر جليا أيضا مع كل عودة إيمانية وعمل تطهري يقوم به أبطال محفوظ عقب إفراطهم في ممارسة شعائر كالحج والصوم والصلاة، وكذلك في تعبيراتهم الاحتفالية الدينية التي تعلن عن عواطفهم الدينية كما في الموالد والزارات التي إن كان الاحتفال بها يشوبه الكثير من المحرمات الدينية، كما نلحظ ذلك في وصف عامر وجدي في ميرامار لمثل هذه المناسبات وما يخالطها من أفعال كشرب الخمر (7)، إلا أنها تشكل فرصة للتعبير الصادق عن إيمانيات قد تكون دفينة عند بعض الشخصيات فتظهر عبر العاطفة الدينية التي تجد متنفسا لها في مثل هذه الأوقات.

وبالرغم من أن الإيمان عند البعض لا يتعدى كونه عاملا ثقافيا مكتسبا في حياتهم، إلا أنه حتى لدى هذه الفئة التي تبدو بعيدة كثيرا عن التدين بشكل عام لا تفتأ في عالم محفوظ وفي كثير من

الأحيان تعلن احترامها وإعجابها بالحس الديني والأخلاقي عند المتدينين والمؤمنين كما يعبر عن ذلك حسين شداد في قصر الشوق (8).

ولا يبتعد الحضور الملح و الدائم للشخصيات الغامضة من الأولياء والمتسولين والعرافين والحكماء المجانين ممن يتجولون في حارات محفوظ عن البوح بهذا الحس الديني المحير، أمام دلالات دائمة الحضور لتراث إنساني مقدس وغيبي، ولكنه يشير في نفس الوقت إلى حاجة ملحة ودائمة عند مختلف سكان حارات محفوظ، كما عند أفراد الطبقات الغنية والمستغربة، إلى تحسس غيبيات مقدسة وبحث دائم عما وراء المرئي والمعلوم تكشف عنه بدورها مشاعر النشوة أمام الطقوس والإشارات الدينية المختلفة من معالم واحتفالات وأناشيد دينية يلفها الغموض في وسط واقعي خيالي عجيب بنفس الوقت، كما في التكية في ملحمة الحرافيش حيث ينتشي عاشور الناجي بسماع أناشيد غامضة وغير مفهومة وبتأمله للدراويش الذي غالبا ما تخالطه رؤى روحانية مختلفة (9) وكذلك الحال بالنسبة لسعيد مهران عند الشيخ الجنيدي في اللص و الكلاب (10).

والجدير بالذكر هنا أن مثل هذه الأوقات من النشوة الدينية التي يعرفها الكثير من شخصيات محفوظ لا تقتصر على طقوس دينية إسلامية، ففي رواية كفاح طيبة، نرى الملك مأخوذا بتلك المشاعر أمام باب المعبد المقدس (11)، وكذلك عند شعب دار المشرق في رحلة ابن فطومة أثناء احتفاله الديني بعيد إلهه القمر، تلك النشوة الدينية تركت قنديلا منبهرا أمام هذه العاطفة الدينية البدائية والقوية والبسيطة لدى هذا الشعب مما دفعه للتساؤل والتفكر فيما يكمن وراء اختلاف المعتقدات الدينية من جوهر أساسي واحد يدفع بالبشر على اختلافهم إلى التعبير بطرق شتى عن حس ديني ينشأ عادة منذ الطفولة مع التربية الدينية الأولى من خلال سماع قصص الأولياء والجان التي لا تفتأ تطبع ذاكرة الكثير من شخصيات محفوظ بحضور لأشياء دينية غيبية وغامضة تتطور فيما بعد إلى تساؤلات ميتافيزيقية (12)،و تأخذ أشكالا وطرقا ومعتقدات مختلفة تشمل كل شئ في عالم محفوظ بدءا من الطقوس الدينية المختلفة والعادات المكتسبة لتشمل كل التفاصيل الدقيقة من أسماء ولغة تعبيرية مستخدمة وحوارات غنية جدا بهذا الخصوص، التي وإن خلت من النظريات الصريحة و المعلنة، فإنها تحمل في طياتها فلسفات دينية "بسيطة" لدى الشخصيات المختلفة تعكس تجربتها في الحياة التي و إن تعددت وجوهها، تظل مشبعة بالحس الديني، كما هو الأمر في أسماء الشخصيات المختلفة و المشتقة في أغلب الأحيان من معان دينية كاسم مأمون رضوان في القاهرة الجديدة على سبيل المثال، الذي يوحي كما هو حال الشخصية ومعتقدها بالانسجام والطمأنينة. ويتكرر اسم رضوان و مشتقاته دائما عندما يتعلق الأمر

بشخصية متدينة أو متزنة روحيا و أخلاقيا كرضوان الحسيني في زقاق المدق ورضا حمادة في المرايا، على عكس محجوب عبد الدائم في القاهرة الجديدة الذي و إن دل لقبه على حتمية خضوعه الديني (عبد الدائم) يظهر اسمه الأول مقلصا حضور الإيمان. وهكذا فالأمثلة التي تعكس البعد الديني لأغلب الشخصيات في سلبيتها وإيجابيتها تظل كثيرة. ولا تفتأ لغة أبطال محفوظ المستخدمة في حواراتهم وفي مونولوجاتهم الداخلية كما في أسمائهم تفصح بدورها عن هذا البعد الحاضر دوما في ضمائرهم، و إن كانت تلاوة بعض السور القرآنية كسورة الرحمن المحببة إلى محفوظ نفسه على لسان شخصياته وكذلك سورة الضحى تشهد على هذا الشعور الديني ولاسيما عندما تختم هذه الآيات بعض الروايات أو بعض فصولها، حيث تدع كلام الله يجيب وحده على الحيرة الإيمانية لدى الشخصيات و استسلامها لإرادة الله، وإن لم تتمكن من أن تعي بعمق كنه هذه الإجابة التي تستعصي أبدا على الإدراك التام، إلا أنها تبقى الإجابة الوحيدة الممكنة على تلك الحيرة، سواء استطاعت هذه الشخصيات استيعابها و سبر أغوارها أم لا. فعندما نجد مثلا بعض الشخصيات اللاأدرية تتلو بعض هذه الآيات والسور في عالم محفوظ الروائي ولاسيما مع شيء من الاعتراض أو حتى السخرية والتهكم أحيانا عند البعض كما هو الأمر مثلا عندما تجتمع هذه الشخصيات في غرزة وتتناقش حول الله والدين وسط أجواء موبوءة كما في حمارة القط الأسود و أولاد حارتنا وغيرهما، فهذا الأمر بالرغم مما فيه من جرأة قد تدعو للاستهجان، لا يخرج بدوره عن كونه تأكيدا على حتمية مثل هذه التساؤلات التي تشغل الإنسان ليس على سبيل السخرية والتهكم كما قد يبدو الأمر للذي ينظر فيه سريعا وعلى حدة وإنما يعيدنا إلى "أصل الحكاية"(13)، محور كتابات محفوظ جميعها، و إلى هذا الحس الديني الذي يكاد يكون فطريا وإن تعرض في حياة البشر إلى الكثير من الشوائب، فهو لا يفتأ يدفع بشخصيات محفوظ التي مازالت مسكونة بمثل هذا الحس وهذه التساؤلات شاءت أم أبت، وإن بدت بعيدة كل البعد عن الدين و التدين. و بين المعلن والمضمر يكمن شيء من الغموض يحيط بهذا الحس الديني وينعكس على كافة الأشكال التي يمكن أن تعبر عن حضوره المستمر بما فيها حالات التساؤلات الاستنكارية و الثائرة.

ولا ننسى بهذا الخصوص كل تفاصيل المكان والزمان المفعمة بدورها بهذا البعد الديني في كل ما يحيط بالشخصيات، حيث تتضح بين هذه الأخيرة ومحيطها علاقة حميمية معبأة بقدسية المكان وبعده الديني الذي يظهر في أدق التفاصيل والرموز التي لا تفتأ تذكر الشخصيات بالدين. وهنا تكمن أهمية مسجد سيدنا الحسين في قصص محفوظ ودوره في إيقاظ هذا الحس من حين لآخر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى التكيات و المقابر وأضرحة الأولياء وحتى الكهوف المظلمة التي تذكر بغموضها غموض

الحس الديني نفسه، ولا ننسى بيت الجبلاوي وأمكنة أخرى كالتي زارها سندباد في ليالي ألف ليلة والتي لا تخلو من المظاهر الدينية و كذلك في رحلة ابن فطومة.

وما نقوله عن المكان ينطبق أيضا على الزمان الذي يتميز عند محفوظ بدوراته المحددة غالبا بأحداث ومعطيات دينية كأوقات الصلاة التي يعلنها صوت الأذان ومناسبات كشهر الصوم وليلة القدر الخ. وكذلك الحال فيما يتعلق بتعاقب الليل والنهار والظلمة والنور، الأمر الذي يحدده ويصحبه دائما صوت الآذان الذي تتلقاه الشخصية كشعاع أمل يضيء حلكة لياليها كما يبدو الأمر في ملحمة الحرافيش مع اكتشاف ولادة عاشور في حلكة الظلام والعثور عليه مع أول نور فجر وقت الصلاة(14).

والجدير بالذكر هنا أن تعاقب الليل والنهار عند محفوظ غالبا ما يتزامن مع الانشغال الدائم للشخصيات بتساؤل وحيرة دينيين لا ينتهيان كالزمن، فشخصيات محفوظ تغرق في بحر لا ينتهي من الظلمات، ومع ذلك فهي تحتفظ بأمل في الخلاص يتعدى حدود الزمان و المكان اللذين لا يقولان أبدا كلمتهما الأخيرة، و لا يفصحان مطلقا عن الحقائق الغيبية، و لكن لا يفتآن يذكران بها.

وهكذا، فإن كانت بعض شخصيات محفوظ تمارس الشعائر الدينية في حياة تعبر بتفاصيلها اليومية عن حس ديني عميق، فإنه كثيرا ما تستسلم أخرى لحيرتها الدائمة. وتبدو أعمال محفوظ مرة أخرى بدلا من أن تعطي إجابات، تطرح التساؤلات الميتافيزيقية المختلفة حول هذه الهيمنة لحس ديني لا ينضب، المتجلي تارة في تفاصيل الحياة، وتارة أخرى في حيرة وضياع الشخصيات في بحثها الدائم عن الحقيقة المطلقة و"أصل الحكاية" (15) التي تستعصي دوما على الفهم لتترك الحس الديني للشخصيات يعبر عن نفسه عبر الأزمات والغموض المحيط. وبينما يشكل الإيمان التقليدي الشعبي لدى بعض الشخصيات نوعا من الرضا والطمأنينة تتغلب على الكثير من المتناقضات في حياتهم الدينية واليومية، إن هذا الإيمان يدفع إلى المزيد من البحث عن الحقيقة المطلقة عند آخرين.

وإذا كانت بعض قصصه لا تكترث كثيرا للدين وأخرى تحتفي به، فإن التساؤلات حول التدين والحقيقة الدينية الكبرى ودورها في حياة الإنسان تبقى واردة بشكل دائم. وهذا ما نلحظه في تجربة جعفر الراوي في قلب الليل كما في تجربة كامل رؤبة لاظ في السراب، كما أنها تتضح أيضا في بنية كثير من الروايات مثل أمام العرش من خلال رؤية شاملة لنماذج من البشر الذين عرفهم التاريخ.

إن الوسط الثقافي والاجتماعي والسياسي والديني للشخصيات في عالم محفوظ متنوع ومتعدد الدلالات، يحمل في طياته رؤى متنوعة تلفت انتباه القارئ إلى تنوع وتناقض المعطيات في حياة البشر، كما يتضح ذلك مثلا في الإجابات الغامضة التي ترد على ألسنة مختلف الشخصيات في فنجان شاي

وفي تساؤلات عبد القوي وعبد الواحد في شهر العسل(16)، وكذلك في مختلف التفسيرات المعطاة لقصة صابر الرحيمي في رواية الطريق(17). ومما يلفت الانتباه بهذا الخصوص أن الكاتب في رواياته عندما يصنف شخصياته ويعرفنا بها لا ينسى أبدا أن يحدد هويتها الدينية وموقفها من الدين والتدين، وكأن مفاتيح كل تجاربها متوقفة على معرفة هذه النقطة بالذات. وتبدو مرة أخرى كينونة مختلف قصصه مرتبطة ارتباطا وثيقا بموضوع الدين وبالحس الديني تحديدا ودوريهما ومفاهيمهما المختلفة في حياة البشر. والجدير بالذكر أن هذا التركيز لا يتعلق بالدين في بعده العقائدي والتعبدي الذي يختلف من دين إلى آخر، وإنما في بعده العاطفي الحسي الفطري عند البشر في تعاطيهم للإيمان الديني على اختلاف أديانهم وفي الضمير الديني العميق لدى الإنسان. وبينما تعيش كثير من الشخصيات حياة بؤس وشقاء وضائعة وسط نظريات ومعتقدات حديثة وقديمة، فإن بحثها يستمر مدفوعا بهذه الفطرة الدينية عند الإنسان، ومستنيرا بكل تجربة شخصية تغنيه.

وهكذا تستمد الأنماط المختلفة لشخصيات محفوظ سبب وجودها من كونها تجسد بعدا إنسانيا إيمانيا واحدا، قد يخبو نوره عند البعض، وقد يشتد عند آخرين، فيأخذ أشكالا متنوعة، تارة بالاستسلام للروحانيات والإيمانيات والتأكيد على الحاجة الماسة لها، وتارة أخرى بالثورة عليها ونفيها في خضم لا ينضب من التناقضات لا تدعو سوى إلى المزيد من البحث وتحسس هذا البعد الديني.

وإذا كانت بعض شخصيات محفوظ من عرافين و أولياء وشيوخ تحيل على جو الاعتقاد التدين الشعبي، فإنها تعكس الحس الديني بمفهومه العميق وما يحمله من غموض. وكما هو الحال بالنسبة لمجمل الرموز ذات الطابع الديني المستخدمة في روايات محفوظ، فإن هذه المعطيات بغموضها وأهميتها وحضورها الدائم، هي أكثر من رموز لمعطيات دينية، إنها إشارات إلى استمرارية الحس الديني المتأصل عند البشر. فالمهم ليس مضمون الرمز نفسه، بل إشارته إلى الروحانية في تجلياتها المختلفة، بدءا من السلوك الإنساني المباشر، ووصولا إلى فكرة الدين العميقة والبعيدة للإنسانية جمعاء. وإذا لم يبد التعاطي مع موضوع الدين عند شخصيات محفوظ سهلا ومطمئنا فانه يعكس في مجمل حالاته واحتمالاته علاقة متأصلة وعميقة لدى كثير من البشر بين الحس الديني وحياة الإنسان على الأرض. ولمعالجة هذه العلاقة بين الإنسان والإيمان يستعمل محفوظ كافة الوسائل للتعبير عن مطاطية هذه العلاقة و عالميتها والجانب الفطري الذي يميزها حيث تصبح القدسية الدينية في عالمه عنصرا بنيويا في الضمير الإنساني سواء كان الشعور الديني مدركا ومعلوما لدى الشخصية أو كامنا في لا شعورها. ويبقى التدين والحس الديني عند محفوظ حاضرا في غموضه أو حتى عندما قد يبدو غائبا أحيانا لدى بعض

الشخصيات. ومن خلال تلك العلاقة الواضحة تارة والغامضة تارة أخرى بين الإنسان والحقيقة الدينية المطلقة، تطرح أعمال محفوظ قراءة أدبية جديدة ومتميزة لعلاقة الإنسان بالدين وتعاطيه له في أبعادها الفطرية والمكتسبة والعامة والخاصة مع التركيز الدائم على الحس الديني كعنصر كامن في الأعماق الإنسانية. وبدلا من التركيز على معالجة تعاطي الإنسان لدين معين ضمن خصوصية اجتماعية وثقافية محددة كما قد يفهم البعض الموضوع الديني في أعمال محفوظ، فإنه لمن الضروري إعادة النظر في دراسة هذا الموضوع في مؤلفات محفوظ بطرح إشكالية الحس الديني ليس على سبيل التشكيك بالأديان المعتقدات كما قد رأى البعض أيضا، وإنما في سبيل البحث، كما أراد المؤلف وشخصياته، عن المزيد من التأمل لمزيد من المعرفة، انطلاقا من المعيش الديني للبشر بمظاهره المختلفة وإشكالاته، للتفكر بهذا الموضوع والبحث في جذوره المتأصلة عند الإنسان. وعندها يبدو الإيمان على فطرته وتأصله عند الإنسان قادرا على اتخاذ أشكال شتى تعكسها التجارب الحياتية والمعطيات المختلفة لدى البشر. و تبرز أعمال محفوظ القدر الأكبر من الأهمية لهذه العالمية وهذا الجانب الفطري ولا تفتأ تطرح التساؤلات العميقة حول ماهية هذا الحس الديني وطرق سبر أغواره، وهذا ما يقودنا إلى التأكيد على تجسد الحس الديني في كتابات محفوظ ليس فقط في المظاهر الحياتية والتجارب المتعددة التي تعيشها شخصياته كل على طريقته وفي محيطه، الأمر الذي قاد الكثيرين إلى التركيز على الأبعاد الدنيوية النفسية والاجتماعية لهذه التجارب، بينما نراها في العمق تدور جميعها في فلك الهدف الأسمى للإنسان وهو البحث عن فهم كنه هذا الحس الديني الذي يشغله ويؤثر في حياته شاء أم أبى، في محاولات عديدة لتجاوز الحيرة الدينية التي تسكنه، وكذلك التساؤلات اللانهائية عن الله و الدين وقصة الإنسان و مصيره.

هوامش البحث

جميع الهوامش المذكورة تعود إلى المؤلفات الكاملة لنجيب محفوظ، مكتبة لبنان ناشرون، 1990-1994، في 5 أجزاء.

1-ص.385-386، ج. 4. - 2 -ص. 306، ج. 1. 3 --ص.173، ج. 3. 4-ص. 597، ج. 4.
- 5-ص. 540، ج. 1. 6 -ص. 155، ج. 3. 7-ص. 447، ج. 3. - 8 -ص. 685، ج. 2
9 --ص. 712، ج. 4. - 10-ص. 46، ج. 3. - 11--ص. 331، ج. 1. - 12-ص. 652-653، ج. 5.
13-ص. 751، ج. 5 و ص. 566-567، ج. 3. 14 -ص. 707، ج. 5. - 15-ص. 751، ج. 5.
16ص. 225، ج. 4. و 236- 246، ج. 4. 17ص. 242-243، ج. 3.

bacimaboutrad@yahoo.fr